أعظم يوم في تاريخ العالم

للأستاذ عبد العزيز البشري

لا شك عندي في أن أعظم يوم في تاريخ العالم على الإطلاق، هو اليومُ الذي هاجر فيه محمدٌ (ص) وصاحبُه من مكةَ إلى المدينة. فإذا كنتَ في حاجة إلى دليل، فسيطالعك بعد قليل.

يرى المستعرضُ لتاريخ الأديان ودعوةِ الرسل أنها جازت بمراحل ثلاث، طوعاً لتطوّر الإنسان من البساطة والغفلة والوحشية إلى أن أصبح كفؤاً للحياة المفكّرة المدبّرة التي تطلب السموّ، وتنشد السعادة في ظلّ الأمنَ والنظام.

الطور الأول:

ففي الطور الأول كانت بعثة الرسل مقصورةً على الدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله، والأمر بأمهات الفضائل، والنهي عن كبريات الرذائل، كما كان وعيد المخالفين الكائدين وتعذيبهم وإرسال العِبرة بهم بالغاً غايةَ الرَّوعة في الفتك والعصف والتنكيل.

فلقد أهلك الله قوم نوح، بعد إذ عصَوْه وتحدَّوا دعوته، بإغراقهم أجمعين. قال تعالى: «حتى إذا جاء أمرُنا وفار التنورُ قلنا احمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين وأهلَك إلا من سبق عليه القولُ ومَن آمَن، وما آمن معه إلاَّ قليل. وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها، إن ربي لغفورٌ رحيم. وهي تجري بهم في موجٍ كالجبال، ونادى نوحٌ ابنه، وكان في معزِلٍ، يا بنيَّ، إركب معنا ولا تكن مع الكافرين. قال سآوي إلى جبلٍ يعصمني من الماء. قال لا عاصمَ اليومَ من أمر الله إلاَّ من رحم، وحال بينهما الموجُ فكان من المغرَقين»: (سورة هود)

ومن هؤلاء المخالفين من أُهلِكوا بالريح العاصفة. قال تعالى: «وأما عادٌ فأُهلِكوا بريحٍ صَرْصَر عاتية، سخَّرها عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيامٍ حُسوماً، فترى القومَ فيها صرعى كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية. فهل ترى لهم من باقية»: (الحاقة)

وقال تعالى: «كذبت عادٌ فكيف كان عذابي ونُذُر، إنّا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحسٍ مستمرّ، تَنزِع الناسَ كأنهم أعجازُ نخلٍ مُنقعر، فكيف كان عذابي ونُذُر» (القمر)

وأما ثمود فأُهلِكوا بالصواعق والزلازل. قال تعالى: «فأخذتهم الرَّجفةُ فأصبحوا في دارهم جاثمين» (الأعراف).

وقال تعالى: «وأخذ الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنَوا فيها» (هود).

وقال تعالى: «وفي ثمودَ إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين، فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقةُ وهم ينظرون»: (الذاريات).

أما قوم لوط، فانظر ماذا أُخذوا به من العقاب الشديد. قال تعالى: «فلما جاء أمرُنا جعلنا عالِيَها سافلَها وأمطرنا عليها حجارةً من سجِّيلٍ منضودٍ مسوَّمةً عند ربك. وما هي من الظالمينَ ببعيد» (هود).

وقال تعالى: «فأخذتهم الصيحةُ مُشرِقين، فجعلنا عالِيَها سافلَها وأمطرنا عليهم حجارةً من سِجِّيل، إن في ذلك لآيات للمتوسمين» (سورة الحجر).

ونكتفي بهذا القدر اليسير في الاستشهاد بما كان يُؤخذ به العُصاة الكائدون من ألوان العصف والخسف والتنكيل والتدمير

وقبل أن نتحول إلى الحديث في الطور الثاني نرى من الخير أن ننبه إلى أن انقسام التاريخ إلى مراحل أو أطوار، ليس معناه أن مرحلة تبدأ من حيث تنتهي سابقتها على الضبط والتحديد، ولا أن التطور من حال إلى حال يحدث دفعة واحدة، بل إن المراحل تتداخل بعضها في بعض كما أن التطور لا يكون إلا بالتغير من طرفيه جميعاً بالنقص من هذا وبالزيادة من هذا، حتى يتلاشى القديم ويحل محله الجديد، وهكذا. وكذلك يكون التطور في كل شيء في هذا العالم

الطور الثاني: أما الطور الثاني فمن أظهر مظاهره الترفُّق بعض الشيء في النُّذُر، والتخفيف في فنون العقوبات وسعة

الدعوة وتبسّط التشريع ، سواء فى العبادات أو فى المعاملات بين الناس . وفى هذا الطور أيضاً كانت تعتمد الدعوة ، بقدر كبير ، على التحدى بالمعجزات ، حتى لقد انتهى هذا الطور بكف العقوبات وتفرد المعجزات

أما الترفق فى النذر والتخفيف فى ألوان العقاب ، فلقد كان هذا التخفيف يتناول الكمّ أوالكيف أو يتناولهما جميعاً. قال الله تعالى : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون » إلى قوله : « فأرسلنا عليهم الطوفانَ والجرادَ والقُمَّلَ والضفادعَ والدم آيات مفصّلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين . ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادعُ لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنَنّ لك ولنرسلنّ معك بنى إسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون » سورة الأعراف

وقال تعالى : « ولقد أوحينا إلى موسى أن أسرِ بعبادى فاضرب لهم طريقاً فى البحر يبساً لا تخاف دَرَكاً ولا تخشى . فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غَشِيهم وأضل فرعون قومه وما هدى » سورة طه

فأنت ترى أن ما أصاب آل فرعون من الجدب ونقص الثمرات وما أرسل عليهم من الطوفان والجراد الخ لم يبلغ من الشدة والروع بعض ما يبلغ العصف والدمدمة والخسف والتدمير . أما إغراق فرعون ومن أتبع بنى إسرائيل من جنده فلعصمة الفارّين من كيدهم وبطشهم، والأمر لا يعدو هنا وقع الأذى على كل حال. على أن عددهم بالنسبة لجمهرة الكافرين الكائدين جدُّ قليل

وأما المعجزات فحسبك منها معجزات موسى عليه السلام إذ ألقى عصاه فإذا هى حية تلقف ما يأفك السحرون ، وإذ ضرب بها الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً ، وإذ ضرب بها البحر فانفلق فكان كلُّ فِرْقٍ كالطَّود العظيم

وحسبك منها معجزات عيسى عليه السلام . قال تعالى : « ورسولاً إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمهَ والأبرصَ وأحيي الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ، إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » . (آل عمران)

الطور الثالث : وبعد فإن بمعجزات عيسى عليه السلام ، قد خُتم هذا الضربُ من الخوارق التى تجرى على أيدى الرسل ، يتحدَّون بها المخالفين المعاندين ، ويثبتون بها أن ما جاؤوا به إنما هو من عند الله ، وكيف لا وقد أيدهم منها بما يخالف سنن الكون ويشدّ على طبائع الخلق

أما بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، فمع أنها تشارك بعثة عيسى عليه السلام فى تجرُّدها من الأحداث التى مر بك بعض وصفها ، فلا عصفَ ولا خسف ، ولا رياحَ عاصفة ، ولا زلازلَ مدمدمة ، ولا شىء من هذا ولا ما دونه مما يزعج النفوس ويدخل الروع على القلوب — فإن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم تمتاز بأمرين : الأول أنها لا خلاف فيها لسنن الكون ولا مغايرة فيها لطبائع المخلوقات ، والثانى أنها باقية مستمرة لا تنقطع على طول الزمان . وقد عرفتَ من غير شك أن هذه المعجزة هى (القرآن)

وكذلك جعلت الدعوة الإلهية تتطور وتنمو بتطور الإنسانية ونموّها على الأحقاب

* * *

إذن لقد نضجت الإنسانية أو أصبحت على وشك النضوج ، وإذن لقد تجاوز الإنسان طور القِصَر وبلغ الرشد أو أضحى على شَرَف البلوغ

لقد أضحى الإنسان حقيقاً بأن يُرفع عن نفسه الحجر ، وتُطلق له حرية التصرف فى استنانه مناهج الحياة . إذ قد تهيأ له لو فكّر وتدبّر ، أن يعرف ما ينفعه وما يضره ، وما يسيئه فى النهاية وما يسره ، وأن يميز بين ما يسعده وما يشقيه ، ومايعزه وما يرديه . فإذا اختلط عليه الأمر أو نَزَعت به العادة إلى الهوى ، نُبِّه ذهنُه ، وحُرِّك فكره ، وضُربت له الأمثال ، وأقيمت له الحجة يصول بها العقل كل مَصال . (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى)

(أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ، فبأى حديث بعده يؤمنون) الأعراف

(أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت وإلى السماء كيف رُفعت وإلى الجبال كيف نُصبت وإلى الأرض كيف سُطحت ، فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر) الغاشية . وهذان مثلان مما لا يدركه الحصر مما ورد فى القرآن الحكيم

* * *